باحثة البادية

(٣)

المسلمة

لئن اجملتُ هنا ما فصّلتهُ في النبذة السابقة من حيثُ أنّ باحثة البادية « امرأةٌ » في جميع ما كتبت فيحسنُ بي الآن المجاهرة بأنها إزاء صفاتها الاخرى « مسلمةٌ » قبل كلّ شيء . وايّ مسلمةٍ هي ! مسلمةٌ شغوفٌ بدينها تغارُ عليهِ غيرةَ محبّ مدنف يتدّس الاسم المحبوب ويرى في كلّ حرف من حروفهِ عالم بهجة وبهاء وعظمةٍ ومجدٍ لا يفنى . إنّ إسلامها لظاهرٌ في كتاباتها تظهوراً جلياً وأقدّرُ أنها كانت معروفةً بالورعِ بين اخواتها المسلمات . وقد ذكرت ذلك الآنسة نبوية موسى — التي كانت رفيقتها في المدرسة — في خطبةٍ بعثت بها الى لجنة التأبين وألقيت في الاحتفال المهيب الذي اقامهُ لها رجال مصر

هي مسلمةٌ الى حدّ إدخالِ الدين في كلّ امرٍ من الامور سياسياً كان أو اجتماعياً او اخلاقياً ، حتى مسائل الازياء والزينة والاصطلاحات والاحاديث الثانوية . ومما قالتهُ في اسلوب المحادثة بين الزوجين :

« هناك اخرى تقول لزوجها حضرتك وسعادتك فما هذا التكلف البارد ؟ انا بسيتنا فلاناً صاحب العزة وتلفيتنا احد الملوك بصاحب الجلالة لتكثر وتعدد . فما صاحب العزة وذو الجلالة الا الله الواحد القهار . ولو أصف كتابنا لحذفوا تلك الالفاظ الدالة على الشرك في كتاباتهم واثرائهم » (١)

اذا ما وقفت على بدعة مستحدثة ورأت امراً جديداً سارعت الى استجواب نفسها هل في ذلك مايغاير الاوامر الدينية . واذا ساد نظام بين القوم واستحكمت روابطهُ بفعل المران والاستعمال والملاءمة لشروط الزمان والمكان دون ان يكون مقرراً في نصوص الشريعة السمحاء فهي لا تحفل بهِ كثيراً ، حتى اذا ما ارغمت على قبولهِ قبلت منهُ اقل مظاهرهِ ابتعاداً عن الفكرة الدينية . ويا ويلها عادةً لا تروق لها ! انها يثور ثائر غضبها وتنتاج باسم الدين لمكافحتها ومغالبتها ، ويا لحدة سنان يراعها الذي يصيحُ في تلك الساعة حربةً وخازة ! قالت منتقدةً الذين يعلمون بناتهم الرقص والتمثيل :

(١) النسائيات

« لا أعلم عند الافرنجية عادة تساوي « الزار » الا مخاصرة الرجال في الرقص وما يتبع تلك العادة من التهتك والتصنع والميل عن جادة الصواب وما ينتج عن اباحتها المطلقة بلا قيد ولا وازع من الضرر البليغ والاخلال بالشرف . وأدهى من ذلك ان ينتشر بينهن مذهب حرية الاعتقاد وهو مذهب من لا يصدق بالله ولا باليوم الآخر فيزعزعن اللبن يجتنين الرذائل بمحض ادارتهن وتربيتهن . ولكن هل اذا منعت الفضيلة امرأة عن اتيان مالا يرضي فهل يصح ان تطبق هذه النظرية على كل امرأة ؟ ان النفس لامارة بالسوء والقد تقدم على كثير من الموبقات لولا الضمير الحي وهو ثمرة الوازع الديني . أفلا يعقلون ؟ أرانا لا نسلك شديداً بديننا الحنيف وهذا بدعة وتعدوه اتتنا من الغرب . أوكلما رأينا انساناً يفعل شيئاً حاكيناه وان كان في ذلك خسارة دينا ودنيانا معاً ؟ »

« ان ذلك (اي الرقص) مناف لتدين الاسلامي هادم للفضيلة مدخل لغير العادات بيننا فعلينا ان نحاربه ما استطعنا ونظهر احتقارنا لمن تفعله من السيدات القليلات اللاتي اذا شجعناهن بسكوتنا لا يلبثن ان يعدين الغير منه » (٢)

لستُ أدري هل كثر العاملاتُ بهذا الرأي ؟ إني شهدتُ من الهوانم كثيرات ممن أتقنَ خطواتِ « الپولكا » و« المازركا » و« الڤالس » يراقصن صاحباتهنّ في اجتماعاتهنّ اللطيفات . فايُّ مانع يمنعهنّ ؟ واي « عار » لامرأة في مراقصة زوجها أو اخيها في المجالس العائلية ، او مراقصة صديقاتها في اجتماعاتٍ نسائية صرفة ؟ انّ فنّ الرقص شرقياً كان ام غربياً ، رياضة مفيدة للصحة اذا استعمل باعتدال ، فضلاً عن انهُ يمرّن اعضاء الجسم فيكسبها ليناً ونشاطاً وخفةً ويحفظها من النشوفة والتصلّب ، كما انهُ درس نافعٌ جداً لتحديد الحركة وتسهيل انسجامها ، وهو افضلُ مقياس لها . ويجوزُ مثل هذا القول في التمثيل . اني عرفتُ سيداتٍ مثّلن في اجتماعات نسائية وسهراتٍ عائلية ، لم أرَ منهنّ رأي العين ولكن قلن لي إنهنّ يفعلن . ومنهنّ واحدةٌ تعجب بالباحثة اعجاباً شديداً بل هي من أعزّ صديقاتها اللاتي يحبنها حبّاً جمّاً ، وقد اجتمعتُ بها للمرة الاولى في صالون باحثةِ البادية نفسها . زرت هذه السيدة منذ عامين او ثلاثة واخذنا نتحدّث عن بعض الروايات التمثيلية فذكرتْ رواية مثنية على حسن تأليفها وبراعة تنسيقها ، ثم قالت : « لقد تناغمنا ادوارها في الاسبوع الماضي ونحن منهمكات في هذه الايام بدرسها لاننا سنمثلها أنا وصديقاتي امام طائفة من معارفنا وزائراتنا » . كانت الباحثةُ في الغيوم يومئذٍ الاّ انها كانت تراسل صديقتها هذه

(٢) النسائيات

كلّ اسبوع تقريباً ، ولا أدري هل علمت بما كان يشغل صاحباتها مما انكرت اتيانهُ بالحدّة التي تعلم

اما مسألة « الشرف » فيصعب حلها جداً لانها من الكلمات التي يستعملها البشر غالباً في غير محلها ، ولما رنين يقرعُ السمع كالاجراس ولكنها في الحقيقة أمرٌ نسبيٌ — كجميع المعاني البشرية . الشرفُ في اعتقادي أسمى وانقى كثيراً من ان يتلوثَ بالعار الذي تثيرهُ خطوات « الثالث » بل هو أرقّ لطفاً واصفى جوهراً من ان تدانيهُ يد الانسان . على اني أفهمُ ان الباحثة لم تقصد الرقص على الاطلاق لانها لم تذكر الرقص الشرقي ، بل هي عنت مراقصة الرجال للنساء على الطريقة الافرنجية

والآن استشعرُ بأني جالبة على نفسي حكماً شديداً من ابناء الطرز الحديث لما انا مجاهرةٌ به . انهم ينحنون امام المرأة المحجوبة ولكنهم لن يكونوا لي من الراحمين . أنا فتاة سافرة تسري عليّ عادات مجتمع هو أقربُ الى « التفرنج » منهُ الى اي نزعة اخرى ، وقد تعلمتُ الرقص واشتركتُ مع قومي في السهرات الراقصات ولم أرَ فيها شيئاً يصحُّ ان يسمى « اخلالاً بالشرف » ولكني ... ها قد وصلتُ الى الخطوة الرهيبة ... ولكني لا اريد للمرأة اختلاطاً كبيراً بالغرباء وأكاد اقول اني لا استحسن مراقصة الرجال للنساء

أما الآن وقد فهتُ بهذا الالحاد الاجتماعي الهائل فقد « تمرّني » اهلُ العصر وحشروني في فصيلة المتفهقرين والرجعيين . اللهم لك الحمد والشكر على كل حال!

***

واذا نادت بالاصلاح العائليّ استشهدت بالله منهدّدةً الظالمين وقالت :

« ألا فلينته الرجال وليتقوا الله في نسائهم وليعلموا ان التقوى مطلوبة في السر والعلن وان الله يرى » . « يا قوم تداركوا الامر ... وسنوا سنة صالحة لابنائكم وبناتكم من بعدكم يكن لكم آخرها الى يوم الدين وقاية عاتية الامور » (٣)

وقالت في اصلاح طريقة الزواج ووجوب اجتماع الخطيبين قبل عقد الخطبة استناداً الى ما كان يتمّ وقوعهُ في الماضي :

(٣) « النسائيات »

« يرى اكثر عقلاء الامة ان لا بد للخطيبين من الاجتماع والتكلم قبل الزواج وهو رأي سديد لم يكن النبي صلى الله عليه وسلم والصحابة يعملون غيره » . « مما يجعل مسألة الزواج عندنا (اي المسلمين) هينة ليّنة اباحة الدين الحنيف الطلاق وتعدد الزوجات . ولكن حبذا لو يكون قصد الشارع ما نراه الآن من الفوضى في أدق الروابط الاجتماعية ومن نقض عهود الاسر وقلب نظاماتها. فان الاديان لم تخلق لجلب البؤس وانما خلقت لاسعاد البشر » . « طريقة الغرب على عهد النبي صلى الله عليه وسلم وما بعده في أمور الخطبة والزواج طريقة شريفة معقولة اذ لم يكن الحجاب حينذاك كما هو الآن . واني اجاهر بان حجابنا مقلوب ونظام اجتماعنا فاسد اشد الفساد لا يصلح ولن يصلح ان تتبعه امة متمدنة » (٤)

واذا قررت بعض مساوىء الرجل واشارت بامر عمدت الى وصية الشارع العربي كقولها :

« انهى ان رجلاً هذه أخلاقه مع زوجه وهذا مبلغ جشعه لخليق بان يفارق . ولكن المدارأة مما اوصى به النبي صلى الله عليه وسلم . فلتداره ما أمكن فذلك خير لها من الخلاف » (٥)

وقد قالت بتعليم المرأة اصول الدين مرة بعد مرة فصرّحت بمطالبها في الخطبة الاولى التي ألقتها في نادي حزب الامة ثم جعلتها أساساً لاقتراحات قدّمتها للمؤتمر الاسلامي المصري ، وخلاصتها وجوب تعليم البنات « تعاليم القرآن والسنة الصحيحة » وان يباح للنساء الذهاب الى المسجد لسماع الوعظ والخطب والارشادات الدينية وحضور ما يقام من الصلوات والاحتفالات كنساء الاديان الاخرى من مسيحية ويهودية . وكان لهذه الاقتراحات صدى استحسان عند الجميع حتى عند ارقى المسلمين فكراً واوفرهم علماً. فكتب الاستاذ لطفي السيد بك في مقدمة « النسائيات » مستصوباً مؤيداً فقال : « ولو صح نظري لكانت قاعدة بحثها في تحرير المرأة قاعدة الاعتدال ورائدها في ذلك للشرع الاسلامي » . الى ان قال : وقصارى القول ان باحثة البادية قد اجادت كل الاجادة في أن جعلت اساس بحثها تقرير المساواة لا على جهة الاطلاق بل في حدود الاعتدال والدين »

ووردت الابيات التالية في ردّها على قصيدة شوقي بك المشهورة :

« اما الفجور فحكمهُ في الشرع ليس بمعضل
ذهب الأئمة فيهِ بين محرّمٍ ومحلّلِ

(٤ و٥) « النسائيات »

ويجوز بالاجماع منهم عند قصد تأهل
ليس النقاب هو الحجاب فقصري او طولي
فاذا جهلت الفرق بينهما فدونك فاسألي
من بعد اقوال الأئمة لا تجادل لتقولي
لا ابتغي غير الفضيلة للنساء فأجلي »

***

وان لها في مدارس الراهبات رأياً صارماً جائراً . قالت :

« وهذه الثلة الخاصة الدعية في العلم هي ولا شك ثلة خريجات مدارس الراهبات وكثير من المدارس الاهلية الاخرى . وحسبك وقوفاً على مبلغ علم هؤلاء ان تسألهن سؤالاً بسيطاً عن بعض ما يلقينه على مسامعك مثل البناء فلا يحرن جواباً . ثم ان احداهن لتسألك تاريخ فرنسا ولا تكاد تأخذ نفسها من سرعة الالقاء واذا سألتها من عمر بن الخطاب او صلاح الدين الايوبي او محمد الفاتح واضرابهم من حماة الاسلام قالت لك لا ادري » . « ومدارس البنات كلها في مصر خلا مدارس الحكومة الثلاث لا اثر فيها للنظام وليس فيها الا تظاهر بالعلم ورياء وهي في اعتقادي لا تصلح مطلقاً لتربية البنات المصريات . وبالجملة اقول ان احسن مدارس البنات في مصر هي مدارس الحكومة اخلاقاً وعلماً على انها لا تزال تقبل الاصلاح والرقي » (٦)

حسبنا شهادةً في مدارس الحكومة انها انجبت باحثة البادية ومن حذون حذوها . اما المدارس الاهلية التي قالت فيها الباحثة ما قالت فأنا لا اعرفها الاّ بالاسم فلا يمكنني استلام الدفاع عنها . ولكني اعرف بعض مدارس الراهبات حقّ المعرفة واني لاجاهر بان انتقاد الباحثة لا ينطبق عليها بوجه من الوجوه وانهُ مهما كان نظام مدارس الحكومة للبنات (وهي مدارس لم اختبرها) حسناً فلا اظنهُ يفوق مدارس الراهبات دقةً ومتانة . قد تكون الباحثة قد عثرت صدفةً على فتيات « تخرجن في مدارس الراهبات وهن لا يعرفن الاّ العزف على البيانو والرطانة ولسن من العلم والتهذيب في شيء » وهن على جهلهن هذا شامخات بأنفهن نحو السماء فيقضين وقتهن بين حديث خرافة وخروج في الشوارع وهن على الصوم اكثر النساء اسرافاً وتبذيراً فضلاً عن البهرجة وقلة الحياء » ، وكنّ سبباً في تكوين حكمها هذا الشديد . ولكن اذا وُجد مثل هؤلاء بين خريجات

(٦) « النسائيات »

مدارس الراهبات فلا تعدم اضرابهن المدارس الاخرى ، ويوجد مثلهن بين اللائي لم يتخرجن الاَّ في منازل آبائهن على يد امهر الاساتذة وافضل المؤدبين . كذلك انجبت مدارس الراهبات نساءً كنَّ سعادة ذويهنَّ ونور محيطهنَّ كما انهُ قد يُرى من افضل النساء في طائفة لم تتلقَّن العلم الاَّ من ذكائها الفطري ولم تتناول قواعد التهذيب الاَّ من الوجدان السليم

إنَّ تأثير المدرسة وتأثير الوسط عظيم جدًّا ولكنهُ ليس لهُ القدرة المطلقة ، والاهمية الكبرى انما هي في قابلية التلميذ واستعداده . لقد قال ارسطو مرة « ان عقل الطفل كالشمع الذين يكيفهُ المعلم كيفما اراد » . فنسخ هذه النظرية فئة من علماء الاخلاق وجعلوها اساساً لتعاليمهم ولكن ما اكثر الذين قاموا يناقشونهم ويدحضون اقوالهم من المعارضين : ومن البديهي ان المدرسة لو كانت ذات فعل مطلق شامل متماثل لما رأينا الفروق الواسعة بين طلبة المعهد الواحد والاختلاف الجوهري بين تلاميذ الفرقة الواحدة المستقين العلم من استاذٍ واحد المنفعلين بتأثير مؤدب واحد. ترى لماذا لم تخرج لنا تلك المدرسة العزيزة وذلك القسم الدراميّ المبارك الاَّ « باحثة البادية » واحدة لا ثانية لها ؟

لستُ بمدافعة عن مدارس الراهبات لمجرَّد الدفاع ولكني تربيتُ فيها سنوات أربع فاختبرتها بنفسي كما اني اختبرتها في غيري من بنات عمي وقريباتي ومعارفي اللائي تهذَّبن وتعلَّمن فيها . لم أجد فيها العيوب المذكورة في « النسائيات » بل ما يعاكسها على خطٍّ مستقيم منها الترفع الكثير عن الدنيا والجري وراء مثلٍ أعلى قلما يتهادى في سبُل الحياة العادية ورفع النفس الى ما وراء المرئيَّات والاكثار من الصلاة والتطرُّف في العبادة ممَّا يؤهل الفتاة لاعتناق الحياة الرهبانية فتظل مدة بعد خروجها الى البيت حائرةً في دوائر الهيئة الاجتماعية ، غريبة بين هؤلاء البشر الذين يجهلونها ولا تفهمهم . وعلى رغم تلك العيوب ما زال الآباء يتهافتون على هذه المدارس ومن افضل رجال مصر حصافةً واوسعهم علماً يأتمنونها على بناتهم واثقين بانَّ نوع التربية المعطى بين تلك الجدران الصامتة هو من اخير الانواع التهذيبية

أما النقص الشائن في اهمال تدريس التاريخ الاسلامي والتواريخ الشرقية الاخرى واتقان اللغة العربية فانَّ اللوم فيهِ عائد على الاهل ، اذ اي شيء يمنعهم

عن تعليم ما يريدون لبناتهم بعد خروجهن من المدرسة ؟ وذلك يسهل عليهن يومئذ لأنهن يدرسن مختارات لا مرغمات فيجدن لذة تحلو منها اكثر الدروس المدرسية الجبرية ويقفن على كثير في وقت قليل . ان الاجانب يهبطون ديارنا لترويج لغتهم ونشر علومهم وتاريخهم ، وفي معرفتنا للغاتهم وآدابهم وتاريخهم وعلومهم سلاح بيدنا وقوة نجاهد بها في ميدان المسابقة المفتوح لنا ولهم وهم فيه غالباً — غالباً فقط ؟ ! — فائزون . وهل يكتفي المرء في هذا العصر بكونه حافظاً لتاريخ الشرق مستظهراً متون سيبويه وحواشي الصبان ان لم يكن له المام بمعارف الغير مع اتقان لغة أجنبية واحدة على الاقل ؟ ان ناموس تنازع البقاء ليقضي علينا بذلك وان أحكامه لنافذة سواء شئنا ام لم نشأ . فان لم نسر بحكمة مع النظام سرنا جهلاً ضده ، ومن ذا الذي يستطيع معاندة ما لا يعاند ومغالبة ما لا يغالب ؟ فان لم نجر مع دولاب الحياة انقلب علينا فكنا فريسته المنسحقة تحت دورانه

لندرس علوم الاجانب من جهة ولندرس تواريخنا من جهة اخرى تكن جامعين بين المعرفتين أقوياء بالقوتين ، ومن لم يكن مهتماً بشؤنه فكيف يتوقع من الغير بأحواله اهتماماً ؟

***

سيرى فريق ان باحثة البادية كانت متعصبة . ذلك مما لا ريب فيه وكيف ينتظر أن تكون غير متعصبة ؟ أليست بشراً وأليس التعصب من أشد العواطف ملاصقة للنفس ؟ حدثوني عن تسامح من لم يكن متعصباً لأضحك قليلاً ! من هذا الشخص ومن أي مذنب مجهول في فيافي الفضاء قد هبط علينا ؟ العالم في مكتبه والمحسن في كرمه والشاعر في عزلته والفيلسوف في تأملاته ، كل من هؤلاء متعصب تعصباً يتفاقم شره كلما كان خفياً تحت مظاهر الحلم والتساهل

واني لارى استعمال المفرد في التعصب سخيفاً بل هناك تعصبات يجوز عليها جمع الجمع وجموع الجموع الى ما لا نهاية له . فالتعصب الجنسي والقومي والعلمي والفلسفي والادبي والاجتماعي والحزبي والعائلي والفردي ، وتعصبات اخرى لا اسماء لها تسير موكباً هائلا مريعاً لا يبرز فيه الا التعصب الذي نعته بالديني . قال قائل ان التاريخ سلسلة حروب وان الشعب الذي لا حروب له لا تاريخ له .

ولو قلنا ان الحروب مجملاً وتفصيلاً ليست الا حكاية تعصب البشر لكنا معبرين عن الفكرة نفسها بكلمات هن اقرب الى معنى الصدق

كثيراً ما اسائل نفسي ترى هل يعد يوماً تأثر العواطف المتطرفة وتتوازن قوى الانصاف فيرتفع المرء بادراكه الى افق يشرف منه على جميع النزعات الانسانية ؟ ترى هل يفطن البشر يوماً ان كلاً من الميول وكلاً من الاديان لم ينطبق دون غيره على مطالب فئة واحتياجاتهم فلا تطمئن منهم النفوس الا بالتمشي مع نصوصها ؟ لو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة فمتى يذكرون ؟ وما يسمونه عند الآخرين تعصباً يدعى عندهم غيرة قومية ونخوة وحمية فمتى يذعنون ؟ ومتى يقولون مع الشاعر :

« هذي المذاهب كلها دين الهدى كأشعة الشمس افترقن الى مدى
والملتقى في مصدر الانوار (٧)

كانت العاطفة الدينية مختلطة عندها بالمعاني القومية والاجتماعية كما هي حالها عند اكثر البشر وان كانت عند المسلمين اوضح منها عند غيرهم . فاذا تكلمت في اجتماعاتنا في مسائل إسلامية صرفة كنت ارى يدها تشير ببطء وعظمة ورأسها يرتفع مفاخراً فاذكر ازاء هاتين الحركتين كلمة الشاعر الاسباني القائل : « انما في عروق الشرق جميع الدماء ملوكية »(٨) . ويا طالما لحت على تلك الجبهة السمراء الجميلة خيالات عز الاسلام متماوجة بين عثاريب شعرها الاسود ! فأحدق اذ ذاك في شفتيها الصامتتين وأراهما تتكلمان بلا حراك وجودها يُعبر عن كلمات حائرات عليهما ، وقد حسبتهن قول الشاعر :

« توزع قلبي حبكم وهو غالب وحقد على اعدائكم يتسعر
ولو كان لي بأس على قدر غيرتي لكان لكم منه حصون وعسكر
أجود بروحي غير أن سبيلها اليكم كما شاء الهوى متعذر (٩)

(مي)

---

(٧) من قصيدة لخليل افندي مطران

(٨) "En las venas de Oriente todas las sangres son reales." Villegas.

(٩) من قصيدة لاحمد افندي الكاشف